# العنصرية في الصور.. انعكاس العلوم الزائفة على الأيقونوغرافيا الغربية

كتب سلام الكواكبي

27 يناير 2026 | آخر تحديث: 10:12 (توقيت القدس)

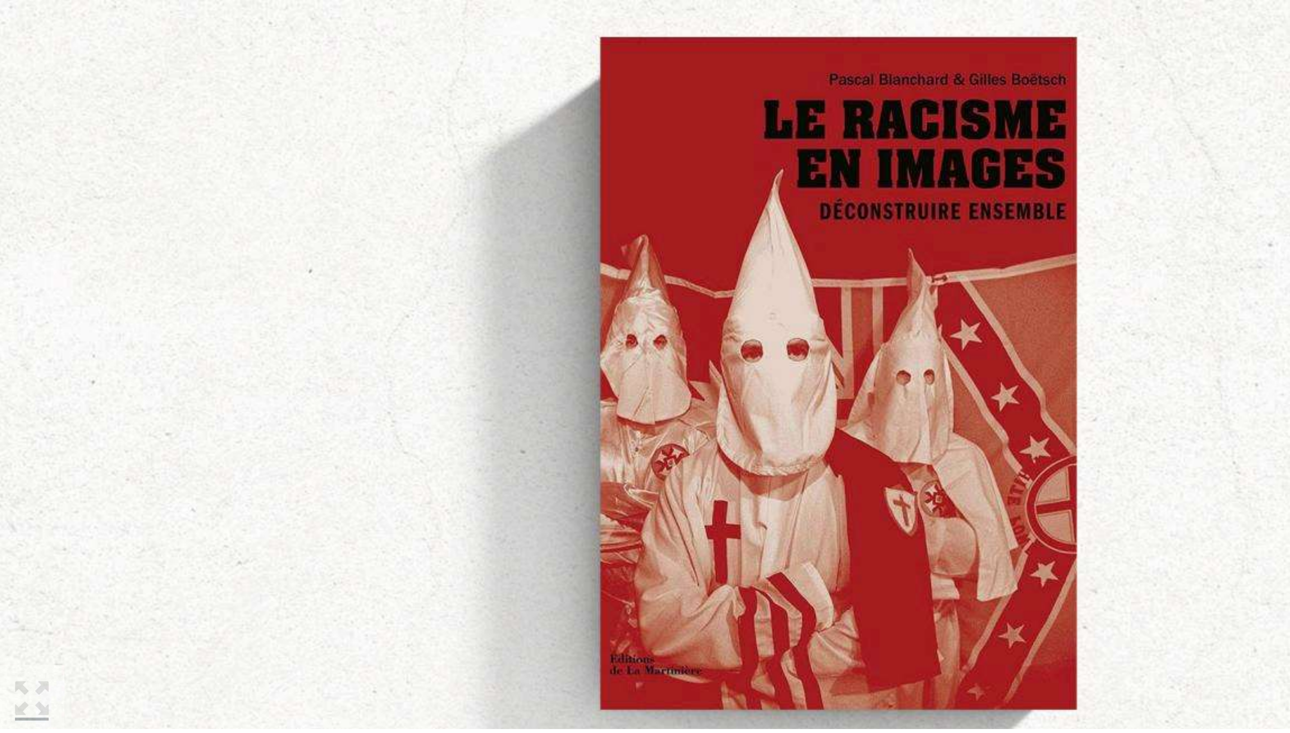


غلاف الكتاب (تصميم العربي الجديد)



يسعى كتاب "العنصرية في الصور: التفكيك معاً"، للفرنسيين الأنثربولوجي باسكال بلانشار والمؤرخ جيل بويتش، إلى تتبّع تاريخ العنصرية في العالم من خلال استكشاف مفاهيم مثل كراهية الأجانب، ومعاداة السامية، والعبودية، والفصل العنصري، والنزعة الاستشراقية، وغيرها. ويعتمد المؤلفان مقاربة تركّز صراحة على الأيقونوغرافيا، لا باعتبارها مجرد مجموعة من الرسوم التوضيحية، بل بوصفها حوامل لتمثّلات الآخر ووسائط قائمة بذاتها لنشر هذه التمثّلات. وتُعدّ تنوّعية الصور

المعتمدة لافتة للنظر، إذ يقدّم الكتاب (مارتينيير بي ال، 2021) لوحات فنية، وإعلانات، ومنشورات، وصوراً فوتوغرافية، وملصقات. وقد اختار بلانشار وبويتش دراسة صور صادرة عن العالم الغربي، مع التشديد على أن العنصرية تتميّز جزئياً بغياب "تأثير المرآة" الذي يحرم الآخر المُعرْقَن من حق الرد. ويتيح تحليل هذه الوسائط المختلفة فهم الانتقال من عنصرية "علمية"، قائمة على دراسة تنوّع الأجساد والثقافات، إلى عنصرية أصبحت "شعبية" بفعل نشر الصور النمطية العرقية لدى الجمهور الواسع عبر هذه التمثّلات الأيقونوغرافية.

يهدف الكتاب إلى القيام ببحث منهجي وشامل من أجل تحديد تلك الصور التي، قرناً بعد قرن، أنتجت ثقافة بصرية يمكن وصفها بأنها مدمّرة للأفراد والهويات. ويتمثل المقصود في توضيح كيف أن هذه التمثّلات الأيقونوغرافية ليست مجرد توضيحات، بل تسهم بذاتها في إنتاج معايير عنصرية ونقل صور نمطية، بما يكرّس ثنائيات مثل متحضّر/متوحّش، أو أبيض/غير أبيض. ويتمثل هدف بلا نشار وبويتش في مرافقة القارئ بأ سلوب تر بوي، عبر أ مثلة ملموسة، لتفكيك العلاقة بالصور وبالصور النمطية المرتبطة بالعرق.

يتكوّن الكتاب من مقدّمة تليها أربعة أقسام، ينقسم كلٌّ منها إلى أربعة فصول فرعية، ويصاحبه 24 "نظرة على الصورة" قدّمها عدد من الشخصيات العامة (باحثون، فنانون، أو كتّاب) من الرياضي ليليان تورام إلى المؤرّخ بنجامين ستورا، مرورًا بالروائية ليلى سليماني.



في المقدّمة، يشدّد المؤلفان على أن تطوّر العنصرية ظاهرة قديمة، وينطلقان من فرضية مشتركة بين جميع المجتمعات: فبمجرّد الشروع في تعريف "نحن"، تُطرح مسألة الآخر. غير أن هذا المسار اتخذ في أوروبا بُعداً خاصاً مع تشكّل خطاب منظَّم يقترح تراتبيةً و"تعرقة" للأفراد. ويُرجَع اختراع مفهوم العرق إلى القرن السادس عشر وإلى إدراج الإنسان ضمن المملكة الحيوانية، ما جعله موضوعاً للدراسة بحدّ ذاته. وترافق ذلك مع تطوّر العلوم الزائفة التي سعت إلى إضفاء طابع موضوعي، داخل خطاب علمي، على الفوارق الجسدية بين البشر ور بطها با لمزاج أو القدرات الذهنية. وفي هذا السياق ظهرت الأيقونوغرافيا لجعل هذه الفوارق محسوسة وملموسة لدى فئات من السكان كانت قليلة القراءة والسفر. ومنذ القرن السابع عشر، شهد إنتاج الصور المرسومة توسّعاً كبيراً مع تطوّر الصحافة والرسم والتخطيط، ثم في القرن التاسع عشر مع التصوير الفوتوغرافي والبطاقات البريدية والمجلات، ولاحقاً مع السينما ووسائل التواصل الاجتماعي.

يُخصَّص القسم الأول من الكتاب لـ"تراتبية الشعوب"، حيث تُدرَس الحروب الصليبية، والعبودية، وعمليات التمييز ثم التراتب، والكاريكاتير. ويتناول المؤلفان الدين بوصفه عامل تمييز وإقصاء، مع التوقّف عند العلاقة مع الشعوب المسلمة وبناء صورة العربي عبر القرون منذ الحروب الصليبية وصولاً إلى الاستعمار ـ بوصفه خطراً، مخادعاً، ومتعصّباً. كما أنتجت العبودية وتجارة الرقيق عدداً كبيراً من التمثّلات الأيقونوغرافية التي استُخدمت لتبرير الاتجار بالبشر وادّعاء دونية السود، وكذلك لدعم الحجج المناهضة للعبودية. ويقدّم المؤلفان أيضاً تحليلاً تاريخياً للمسار شبه العلمي الذي قاد إلى تصنيف السكان إلى أعراق ووضع أنماط تقسّم العالم. ويُختتم هذا القسم بتحليل البعد العنصري للكاريكاتير، الذي يشوّه الوجوه لوصم الجماعات المُعرْقَنة إلى حدّ جعلها مخيفة أو حتى متوحشة.

أما القسم الثاني من الكتاب وتحت عنوان "نمذجة العالم"، فيقترح مساءلة الديناميات الكبرى في تاريخ العنصرية، موضحاً الاستعمار/نزع الاستعمار، وصناعة الأنماط الجسدية والإثنية، وكذلك البعد الجنسي للاستشراق، وعرض الأجساد في "حدائق الحيوان البشرية". ويشير المؤلفان إلى اختلال في إنتاج الصور، وذلك بين الكمّ الكبير من الصور التي خدمَت تبرير المشروع الاستعماري، وتلك الأقل عدداً التي نقلت خطابات مناهِضة للاستعمار. كما كانت الصور وسيلةً لتجوهُر الهويات الجسدية، عبر تنميط الأجساد والشخصيات بحسب الانتماء الإثني، من خلال أساطير مثل "المتوحّش" أو "آكل لحوم البشر". ويرتبط الاستشراق بتشييء النساء المُستعمَرات جنسياً، بوصفهنّ جذّابات ومُنفِّرات في آن، لكن قبل كل شيء متاحات للمستعمِرين، ما يضاعف الهيمنة العرقية بهيمنة جنسية. ويسمح عرض الأجساد في "العروض الإثنية" وغيرها من حدائق الحيوان البشرية بنشر خيال عنصري لدى الجمهور العام، قائم على حيوَنة الآخر المُعرْقَن، وتبرير المشروع الاستعماري.

في القسم الثالث، بعنوان "تطرّف المخاوف"، تُدرَس كيفية بناء الخوف- خصوصاً عبر الصور والكاريكاتيرات العنصرية- وما يقود إليه من تمييز وفصل عنصري، وكيف يساهم في تعزيز أيديولوجيات مثل الفاشية، والتفوّق العرقي، ومعاداة السامية. وتُدرَس معاداة السامية تاريخياً وكذلك عبر التمثّلات الأيقونوغرافية التي شكّلت تدريجياً خيالاً عنصرياً يربط اليهود بسمات جسدية وشخصية محدّدة. وبينما يُعدّ التمييز فعلاً فردياً، وإن كان ضمن سياق سياسي، فإن الفصل العنصري يمثّل فعلاً مؤسّسياً للفصل بين السكان، قائماً على معايير مثل الدين، والوضع السياسي، والنوع الاجتماعي، والعرق. ويجسّد الفصل العنصري في الولايات المتحدة هذا المنطق، وقد غذّته أيقونوغرافيا غنية مرتبطة بالحركة الانفصالية وبحركة المطالِبة بالمساواة. كما تُمكّن التمثّلات الحركات الفاشية والتفوّقية من المطالبة بـ"قوة البيض" والحفاظ على "نقاء العرق" في مواجهة أخطار الاختلاط العرقي والانحطاط الحضاري المزعوم.

## اعتماد مقاربة تربوية لمواجهة إعادة تشكل بعض الحركات العنصرية

ويُبرز القسم الأخير من الكتاب، والمعنون "تقسيم الهويات"، كيف أن النظر إلى الأفراد حصرياً من زاوية العرق يشكّل تبسيطاً وإفقاراً. فمفهوم "المهاجر" هو وسمٌ مفروض يحكم على الأفراد بعدم الانتماء الكامل إلى الجماعات. ويُعدّ نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا رمزاً لتصوّرٍ للمواطنة مرتبط بعمق بالعرق، يفصل بين شعب أبيض مُنتخَب "شرعي" و"غير البيض" بوصفهم أدنى. وتتطرّق الفقرة الأخيرة إلى رهاب المثلية وكراهية النساء بوصفهما شكلين آخرين من أشكال الاضطهاد القائم على فكرة الدونية وإقصاء من لا ينتمون إلى المعيار الذكوري والمغاير جنسياً.

في الخاتمة، يعود المؤلفان إلى منهجهما القائم على دراسة الصور وتفكيكها من أجل "تفكيك الافتراضات التي تستند إليها ومنحها دلالة جديدة وجعل آثارها الضارّة مسموعة". ومن خلال تفكيك الأيقونوغرافيا والآليات التي تُبنى عليها، يتم في الواقع تفكيك المخيّلات الجماعية وكشف تحيّزاتها. ويُختتم الكتاب بتأمّل حول ضرورة اعتماد مقاربة تربوية تتجاوز الحكم الأخلاقي البسيط، لمواجهة إعادة تشكّل بعض الحركات العنصرية وعودتها، بدل الاكتفاء بإسقاط هذه الآثار أو محوها.

يتمثّل الإسهام الأساسي للكتاب باختياره مقاربة أيقونوغرافية، ليست جديدة فحسب، بل شديدة الطابع التربوي. فوجود الصور ووصفها يتيح للقارئ فهماً ملموساً للصور النمطية المنقولة واستيعاب الآليات التي تُغذّي الخطابات العنصرية. كما أن الاستعانة بشخصيات معروفة لدى الجمهور العام،

يقدّم كلًّ منها تحليلاً لتمثّل بصري معيّن، تعزّز الإحساس بالقرب من القارئ. ويُشَاد أيضاً بسعة المشروع الذي يعالج المخيّلات العنصرية من القرن الثامن عشر إلى مطلع القرن الحادي والعشرين في بعدها الدولي.

يُؤخَذ على الكتاب غياب تعليقٍ وتحليلٍ للسياسة الخارجية الفرنسية الراهنة تجاه البلدان الأفريقية، وهو ما كان من شأنه إدخال مفاهيم مثل "الاستعمار الجديد" أو "الأبوية". كما اختار المؤلفان تعميق تحليل بناء المخيّلة المرتبطة بـ"الأسود" و"اليهودي" و"العربي" عبر العودة إلى المسار التاريخي، وكان يمكن استكمال ذلك بتحليل مماثل لبناء صورة "الآسيوي" أو "الشعوب الأصلية"، إذ إن الشعوب الأصلية في الأمريكيتين تكاد تكون غائبة عن الكتاب. إضافةً إلى ذلك، كان يمكن ربط القسم الأخير، المخصّص لكراهية النساء ورهاب المثلية، بالعنصرية بشكل أوثق، من خلال دراسة مسألة المثلية الجنسية في السياقات الاستعمارية.

* كاتب وباحث سوري مقيم في فرنسا

كتب

قصر الدار البيضاء.. المكان أثراً سياسياً في تاريخ الدولة

محمد عبد الفتاح.. السينما البديلة في 5 بلدان عربية

نسخة كاملة من "كتاب الموتى" تُعرض لأول مرة في نيويورك

سالي روني: رفع الحظر عن "بالستاين أكشن" انتصار للحريات في بريطانيا

اشترك في النشرة البريدية *

البريد الإلكتروني

اشترك الآن